تصدير

* * *

بقلم المستشرق الكبير الأستاذ جاستون فييت

مدير دار الآثار العربية

لست فى حاجة إلى أن أقدم إلى القراء المصريين الدكتور زكى محمد حسن؛ فقد يكون مؤلفه الكبير عن الدولة الطولونية قد مر دون أن يسترعى انتباه جمهور كبير فى مصر، لأنه كتب باللغة الفرنسية؛ ولكن الدكتور زكى لم يكن لديه بد من كتابته بهذه اللغة؛ فقد أعده ليحصل به على درجة الدكتوراه من السربون. وهذا الكتاب يشهد على كل حال بأن الدكتور زكى يملك ناصية اللغة الفرنسية ويجيدها إجادته لغة بلاده.

وإنى لشديد الرغبة فى أن ينقل الدكتور زكى إلى العربية هذا المؤلف التاريخى حتى يستطيع المثقفون المصريون ممن لا دراية لهم باللغة الفرنسية أن يروا إلى أى حد استطاع المؤلف أن يلم بموضوعه إلماما شاملا وأن يعالجه فى شعور وطنى أثر فى أثراً بالغًا.

وقد عاد الدكتور زكى إلى مصر بعد دراسات واسعة ومثمرة فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وأسبانيا. وتسلَّم كأمين لدار الآثار العربية العمل الذى تؤهله له دراساته وأبحاثه. وكان أول همه أن يكون إنتاجه ظاهراً منذ رجوعه إلى وطنه فألف الجزء الأول من كتاب عن تاريخ الفن الإسلامى فى مصر، وسارعت دار الآثار العربية إلى طبع هذا الكتاب على نفقتها؛ فهو الأول من نوعه فى اللغة العربية، وقد وفّق فيه الدكتور زكى إلى اطلاع مواطنيه على الدراسات التى قام بها العلماء الأوروبيون فى هذا الميدان وإلى الأخذ بنصيبه فيه. والحق أن العلماء المتكلمين باللغة العربية يلزمهم أن لا يجهلوا تصانيف

المستشرقين إن لم يكن للموافقة على ما فيها فلإعلان ما عسى أن يكشفوه فى نتائج أبحاثهم من أخطاء، كما أن المستشرقين لا يستطيعون أن يغضوا الطرف عن المؤلفات المكتوبة بالعربية.

ولذا فإنى بصفتى غربى تربطه بالشرق دراسات طويلة، وباعتبارى مدير دار الآثار العربية أشعر بسرور مزدوج فى أن أقدم إلى القراء المصريين هذا المؤلف الجديد الذى كتبه الدكتور زكى.

***

وفى الواقع إن تصوير المخطوطات من أطرف نواحى الفن الإسلامى وأكثرها إمتاعا، والدكتور زكى حسن، بفضل ما نعهده فيه من المزايا، يعرض لنا هذا الموضوع عرضًا دقيقًا واضحًا يشعر بأنه يحبه حبا جما. ولا ريب فى أن تذوقه الفن فى تلك الصور وفرط إعجابه بها سهلا عليه التعمق فى دراستها.

ويرى القراء أن الدكتور زكى يبدأ كتابه بمقدمة تاريخية لازمة يستعرض فيها تاريخ إيران لينتقل بعد ذلك إلى دراسة نشأة التصوير الإسلامى وتطور هذا الفن فى بلاد إيران مع العوامل التى أثرت فيه. وقد وفق المؤلف إلى شرح المدارس المختلفة وبيان مميزات كل منها، والمصورين الذين نبغوا وكانت لهم مواهب ممتازة تفوقها كلها مواهب زعيمهم بهزاد.

وإنى عظيم الأمل فى أن يجد القراء المصريون فى قراءة هذا المؤلف الجديد ما وجدته فى قراءته من فائدة واغتباط.

جاستون فييت

القاهرة فى فبراير سنة ١٩٣٦

مقدمة

بقلم الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام

- ١ -

حرّم الإسلام تصوير ذوات الروح قضاء على الوثنية فى كل مظاهرها فلم يعن المسلمون بتصوير الإنسان والحيوان، ووجهوا عنايتهم، حينما ازدهرت حضارتهم، إلى النقش والخط وتصوير النبات والجماد فأتوا فى ذلك بآيات من الجمال.

على أن المسلمين ترخّصوا على مرّ الزمان فى تصوير ذوات الروح وتجسيدها ولا سيما فى العصور المتأخرة، القرن السابع الهجرى فما بعده.

ففى قصر عمرا الذى كشفت بقاياه فى بادية الشام، ويظن أن بانيه أحد الأمراء الأمويين، صور كثيرة حيوانية ونباتية، فلم يقتصر الأمويون على صور النبات والجماد التى نرى مثالها الجميل فى الفسيفساء التى لا تزال تزين جدران جامع بنى أمية بدمشق.

وقد روى أن المنصور العباسى حينما بنى بغداد أمر أن يوضع على إحدى قبابها صورة فارس تحركها الريح. وكذلك كشفت آثار سامرا وآثار الفاطميين فى مصر عن صور حيوانية كثيرة. ولا تزال آثار الأندلس شاهدة بمثل هذا.

وكانت الكتب الإسلامية من أجمل المظاهر للفنون الجميلة فى الخط والنقش والتذهيب والتلوين. وكانت صفحاتها أوسع مجال للصور الروحية التى نفر منها المسلمون دهرا.

فى القرن السابع الهجرى أولع الناس فى العراق بالتصوير فى الكتب

لتمثيل بعض قصصها. ومن أنبه الكتب في هذا مقامات الحريرى. فقد أغرم المصورون بتمثيل نوادر أبى زيد السروجى، فمثلوا كثيراً من أزياء ذلك العهد وعاداته. وفى المكتبة الأهلية بباريس نسخة من المقامات فيها زهاء مائة صورة صوِّرت فى منتصف القرن السابع الهجرى.

وكان في مصر والشام لهذا العهد اهتمام لتصوير الكتب كذلك.

ثم تجلى هذا الفن فى البلاد الفارسية ولم يقف المصورون هناك عند حد فصوروا حتى الأنبياء والصحابة. وقد كان للفن هناك أطوار متداولة بتأثير الفن الصينى، وبترقيه على مر الزمان. وقد تولى رعايته الملوك الذين امتد سلطانهم على البلاد الفارسية: الايلخانيون والتيموريون فالصفويون. ولا تزال آثار تلك العهود ناطقة باهتمام القوم وتنافسهم فى تزيين الكتب والقصور بالصور.

وكانت سمرقند وهراة فى عهد تيمور وشاهرخ وبَيْسُنْقُر وحسين بَيْقَرا ووزيره مير على شير مجمع الكاتبين والمصورين. وختم هذا العصر بالمصور الذائع الصيت بهزاد.

وفى عهد الصفويين ازدهر التصوير ازدهاراً إذ عنى به السلاطين عناية كبيرة ولا سيما الشاه طهماسب (٩٣٠ - ٣٨٤هـ) والشاه عباس الكبير (٩٨٥-١٠٣٨هـ).

وفى عهد عباس ازدانت قصور أصفهان بآيات من النقش والتصوير رأيت بقاياها فى قصر چهل ستون (الأربعين عموداً) وغيره من قصور أصفهان. وفى ذلك العهد ظهرت بجانب الصور الفارسية صور يظهر فيها الفن الأوربى. وفى قصر چهل ستون صور تمثل سفراء أوروبا إلى الشاه عباس وتمثل مواقع حربية تذكر رائيها بصور قصر فرساى فى فرنسا.

ويمثل هذا العصر المصوّر النابه رضا عباسى

وكان للتصوير من بعد أطوار أدت به نحو الذبول.

ثم إلى جانب التصوير الفارسى التصوير الإسلامى فى الهند وغيرها، وكل ذلكم جدير بدرس واسع.

- ٢ -

وقد عنى الأوروبيون كثيراً بدراسة التصوير الإسلامى والعمارة الإسلامية، فجمعوا الكتب المصورة والصور المفردة ورتبوها على التاريخ ووصفوها. وجعلوا للفن الإسلامى تاريخًا واضحًا حتى كتب الأستاذ أرنولد وزميل له كتابًا فى فن الكتب خاصة سمّوه «الكتاب الإسلامى».

- ٣ -

واهتم المسلمون فى هذه السنين بدرس الفنون الإسلامية اقتداء بالأوروبيين. وكان من آثار هذا الاهتمام أن أرسلت وزارة المعارف المصرية طالبا لدرس الفنون الإسلامية وهو شاب نجيب تخرج فى كلية الآداب ومدرسة المعلمين العليا. أرسل إلى باريس فدرس مجدّا حتى نال درجة الدكتوراه وأكمل درسه فى متاحف ألمانيا وغيرها، ثم عاد إلى مصر موفّقًا يُعنى بأن يمد اللغة العربية بما تحتاجه من كتب الفن الإسلامى، وذلكم هو تلميذنا ثم زميلنا الدكتور زكى محمد حسن.

وقد كتب عن «الفن الإسلامى فى مصر» كتابًا ظهر منه الجزء الأول ثم وضع الكتاب الذى نقدمه إلى القراء بهذه الكلمة - كتاب «التصوير فى الإسلام عند الفرس».

وإنا لنرجو فى همة الدكتور زكى محمد حسن ونبوغه رجاء كبيراً، آملين أن يبذل جهده فى إمتاع قراء العربية بين الحين والحين ببحث فى هذا الموضوع الطريف.

والله ييسر له كل خير، ويقدر له النجاح فى كل عمل.

عبد الوهاب عزام

بغداد ٢٨ شوال سنة ١٣٥٤ - ٢٣ يناير سنة ١٩٣٦

* * *

مقدمة تاريخية

* * *

تمتد هضبة إيران من وادى دجلة والفرات غربًا إلى وادى نهر السند شرقا، ومن خليج فارس وبحر العرب جنوبًا إلى بحر قزوين ونهر جيحون شمالاً، فهى بذلك تشمل بلاد إيران الحالية وأفغانستان وبلوخستان وجنوب التركستان الروسية.

ولأن الأسرتين الكيانية (الأكمينية) والساسانية، أعظم الأسر الملكية التى حكمت تلك البلاد، نشأتا فى إقليم فارس بالجنوب الغربى من إيران غلب اسم هذا الأقليم على بلاد إيران كلها، وأصبحت تعرف به عند اليونان والرومان والعرب والأوروبيين.

ولفظ إيران مشتق من لفظ آرى. فإيران بلاد الإيرانيين الذين هم قسم من الآريين نزحوا إلى وطنهم الجديد من أواسط آسيا.

ولا ريب فى أن حضارة الشعوب التى كانت تسكن إيران قديمة جدًا؛ فقد وجد السر أوريل شتاين، والأستاذ هرتزفلد، قطعًا من خزف رقيق متقن الصنع تزينه أشرطة جميلة من الخطوط والأشكال الهندسية. وعلماء الآثار مختلفون فى تعيين العهد الذى صنع فيه هذا الخزف، ولعل أرجح الآراء أنه صنع فى الألف الرابع أو الثالث قبل الميلاد.

وقد عثر المنقبون أيضا على نوع آخر من الخزف كشفوا أكثره فى إقليم نهاوند، وليس لهذا الخزف رقة النوع السابق أو حسن صناعته، ويرجعه كثير من العلماء إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان معرض الفن الفارسى فى لندن عام ١٩٣١ سببًا فى شهرة ما اكتشف فى لورستان من أوعية وأسلحة وأدوات زينة وغيرها من البرونز، اختلف العلماء كثيراً فى تاريخها ولكن أكثرهم يرجعونها إلى نحو ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

على أن تاريخ إيران قبل قورش Cyrus خرافى غامض؛ ولكنا نعلم أنه فى القرن السادس قبل الميلاد كان القسم الغربى من إيران يسكنه شعبان من الجنس الآرى، الميديون فى الشمال، والفرس فى الجنوب.

أما الميديون فكانوا قد نزحوا إلى هذه البلاد قبل ذلك بعصور طويلة، وكان اختلاطهم بالآشوريين والبابليين من سكان الجزيرة والعراق عاملاً كبيراً فى رقيهم، فتعلموا الكتابة وبلغوا من الحضارة مبلغًا كبيراً أمكَّنهم من إخضاع الفرس وإلزامهم دفع الجزية.

وكان الفرس أحدث عهداً بسكنى إيران، ولكن ضعفهم لم يدم طويلا إذ تمكن قورش السالف الذكر من توحيد كلمتهم، ثم غزا شمال إيران فهزم الميديين واستولى على عاصمتهم اكبطانة (همذان الحالية)، ووحد ملك البلاد سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وأسس الدولة الكيانية.

الدولة الكيانية (٥٥٩-٣٣١ قبل الميلاد)

مدّ قورش سلطانه شرقًا حتى نهر السند، ثم ضم إلى بلاده آسيا الصغرى بعد أن هزم الليديين وأسر ملكهم كروسس، وانتصر بعد ذلك على الكلدانيين فاستولى على بابل سنة ٥٣٩ ق. م، وسار خلفاؤه على سنته؛ ففتح ابنه قمبيز مصر سنة ٥٣٥ ق. م، والتقى الفرس والإغريق بعد هذه الفتوح، فكان بينهما الكفاح المعروف وتكررت حملات الفرس على بلاد

الإغـريق وما بقى لهـا من المستـعمـرات (٥٠٠-٤٧٩ ق. م)، وظلت دولة الكيـانيـين قـائـمـة إلى أن ظهـر الإسكندر المقـدونى وقـضى علـى ملكهم (٣٣٤-٣٣١ ق. م).

وكان الآريون فى العـصور القديمـة يعبدون مظاهر الطبـيعة ويعتـقدون بوجود نزاع بين قـواها المختلفة، إلى أن ظهـر زردشت فى الألف الأول قبل الميلاد فـوحد قوى الخـير فى معبـود واحد سمـاه أهورامزدا، كمـا جعل من الأرواح الشريرة وحدة هى أهريمـان. والقوتان فى نزاع دائم: خلق أهورامزدا كل ما هو خير ونافع، وخلق أهريمان كل ما هو شر وضار، وواجب الإنسان أن ينصـر روح الخير وأن يـخذل روح الشر وأن يـعتقـد باليوم الآخـر. وأيد زردشت فى تعاليمه تقديس الآريين للنار واتخـذها رمزًا للخير والنور، وكان إيقاد النار على موقد فى العراء أهم مظاهر ديانته.

الإسكندر وخلفاؤه (٣٣٠-٢٤٨ ق.م)

مـزق الإسكندر ملك الفـرس ومهـد انتصـاره الطريق لنشـر الحضـارة الإغريقية فى الشرق الأدنى وشمالى الهند، وكان أكبر ما يطمح إليه أن يوحد الشرق والغـرب ويجعل منهما إمـبراطورية عالمية تحت سلطانه؛ فـتزوج ببنت دارا الثالث، وتبعه قواده فتزوج كثير منهم بفارسيات.

ولكن المنية عـاجلته. وانقسم ملكـه من بعده أقسامًـا تولى الأمر فيـها قواده، ولم يصب أحدهم سلويقوس Seleucus شيئًا يذكر ولم يلبث النزاع أن دب بين خلفاء الإسكندر فـانضم سلويقوس هذا إلى أنتيجـون وحصل بذلك على بابل، ولكن أنتـيـجون أراد بعـد ذلك أن ينفـرد بإرث الإسكندر فغلبـه. سلويقوس على أمـره، ومد سلطانه على أكثـر الأملاك الآسيوية التى خلفـها العاهل المقـدونى، وأخذت الحضارة الإغـريقية تنتشـر فى الشرق الأدنى إبان حكمه وفى عصر خلفائه السلويقيين.

البارثيون Les Parthes (٥٠ ق.م - ٢٦٦م)

كان يسكن خراسان (بارثيا) فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد شعب آرى نزح إليها من أواسط آسيا، واستطاع ملكه أرزاكس Arsakes أن يستقل بإقليمه، وظل البارثيون فى نزاع مع خلفاء سلويقوس حتى انتزعوا منهم غربى إيران وشرقى بلاد الجزيرة، ثم مع الرومان فسلبوهم أرمينية وغربى بلاد الجزيرة، وفى عهد ميتراداتا الأكبر (١٧٤-١٣٦) بلغت إمبراطورية البارثيين أبعد حدودها، ومع أن هؤلاء البارثيين كانوا إيرانيين فيما يظن لم تكن تتمثل الحضارة الإيرانية فى عصرهم تماما إلا فى طبقات الشعب، أما البلاط وكبار رجال الدولة فقد غلبت عليهم الحضارة الإغريقية، وكان إلحاق الملوك البارثيين نسبهم بالكيانيين غير ذى أثر كبير بعد أن صبغ الإسكندر وخلفاؤه البلاد بصبغة إغريقية قوية.

الساسانيون Les Sassanides (٢٢٦-٦٤١م)

ينتسبون إلى ساسان وهو شخص خرافى يزعمون أنه كان كاهنًا فى اصطخر. وهم فوق ذلك يصلون نسبهم بالكيانيين.

وقد كانت إيران فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد يحكمها عدة أسر صغيرة تخضع للبارثيين فسمى العرب هذا العصر عصر ملوك الطوائف، وكان بابك على رأس إحدى هذه الأسر الصغيرة يحكم إقليمًا فى فارس، ثم بدأ فى التوسع على حساب جيرانه، واستطاع حفيده أردشير أن يهزم أردوان آخر ملوك البارثيين فى إيران، فاغتصب عرشه وأسس الأسرة الساسانية التى ورثت فيما ورثته عن البارثيين النزاع بين إيران وروما ثم بيزنطة، فغزا أردشير أرمينية وبدأ ذلك الكفاح الذى ظل قائمًا بين الإمبراطوريتين حتى سقوط الساسانيين لا تتخلله إلا فترات قصيرة.

ولا ريب أن الفضل فى العودة بإيران إلى مجـدها الأول والسير بها فى ميدان الحضـارة شوطًا بعيدًا إنما يرجع إلى الدولة الساسانيـة التى كان ملوكها أبطال الدفـاع عن إيران والحـضـارة الإيرانية ضـد الرومـان ثم الإغـريق فى الغرب، وضد القبائل المغولية التركية فى الشرق.

وقد اشتهر من ملوك هذه الأسـرة شابور الأول الذى غزا سورية وقاتل الرومان سنة ٢٦٠ فأوقع بجيـشهم هزيمة كبيرة وأسـر إمبراطورهم (فالريان) فخلد الفرس ذكرى هذا الحادث الجلل فى نقوشهم البارزة على الصخور.

ومنهم بهـرام الخـامس الذى ارتقى عـرش إيران بمعونة النـعمـان ملك الحيرة، والذى برع فى الصيـد فلقبوه بهرام جور (من كور بالفـارسية ومعناها حمار الوحش)، وكانت أكبر مجهوداته ضد القبائل التى كانت تهاجم الحدود الشمالية والشرقية لإمبراطوريته.

وفى سنة ٥٣١ ارتقى عرش إيـران أنوشروان العادل الذى يتـغنى بذكره شعراء العرب، فأصلح القوانين، ونظم الضرائب، واستتب الأمن فى عصره، وانتصرت جيـوشه فى الحدود الشرقية والغربية، فـأخضع سورية ومد سلطانه إلى بلاد اليمن. واستطاع أبرويز الثانى أن يخضع سورية والشام ومصر وآسيا الصغـرى، وكاد يستولى على القـسطنطينية لولا أن نهض لصده الإمـبراطور هرقل فأوقع بالفـرس فى بلاد الجزيرة هزيمة كـبيرة واسـترد ما استـولى عليه أبرويز.

ولما كانت الإمبـراطورية الساسانية وليدة نـهضة وطنية ملكية دينيـة فقد ظلت طول حكمها إيرانية وطنية للدين فيها المنزلة العليا، واستطاع ملوكها أن يبعثوا النظم الإدارية التـى استحدثها دارا فى عصر الدولة الكيـانية، وأن يبثوا احتـرام الإدارة المركزية فى نفوس حكام الأقـاليم والمدن، وكان دين زردشت

مرتبطًا أوثق ارتباط بهذه النهضة المباركة فكان دين الدولة الرسمى، وعظم نفوذ رجال الدين حتى أصبحوا خطراً على نظام الملكية نفسه، فحاول الملوك فى القرن الرابع أن يصدوا هذا التيار وذهب بعضهم ضحية مساعيه هذه، فخلع أردشير الثانى (٣٧٩-٣٨٣) وقتل شابور الثالث (٣٨٣-٣٨٨) ويزدجرد الأول (٣٩٩-٤٢٠)، وكان هرمز الأول (٢٧٢-٢٧٣) قد اعتنق مذهب المانوية وهو مزيج من الزردشتية والنصرانية أساسه أن العالم نشأ عن أصلين: النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير وعن الظلمة نشأ كل شر، ولكن امتزاج الخير والشر فى هذا العالم شر يجب الخلاص منه. والمانوية يدعون إلى الزهد ويحرمون النكاح استعجالاً للفناء، ويقرون بنبوة عيسى وزردشت ويزعمون أن مانى هو النبى الذى بشر به المسيح، على أن تعاليمهم لم تلق فى إيران نجاحًا كبيراً، فلما مات هرمز وخلفه بهرام الأول (٢٧٣-٢٧٦) قتل مانى وشرد أصحابه.

وآخر من خرج على دين زردشت من ملوك إيران قباذ الأول (٤٨٨-٥٣١) فاتبع مذهب مزدك وهو ثنوى أيضًا، ولكنه يمتاز بتعاليمه الاشتراكية وإباحته الأموال والنساء، وكان قباذ يرمى بتأييد هذا المذهب إلى القضاء على نفوذ الأشراف ورجال الدين، ولكنه غلب على أمره وأقصى عن العرش ورجع إليه ثانية بعد أن هجر تعاليم مزدك، ولا غرو فى ذلك فإنه مع أن الدولة الساسانية كان على رأسها عاهل يقدسه الشعب وينزله منزلة الآلهة، كانت طبقة الأشراف تنعم بسلطة واسعة وتسيطر على الأرض وتخرّج للحكومة الموظفين ورجال الجيش، كما كان رجال الدين يحافظون على تعاليم زردشت ولا يقف فى سبيلهم شىء دون قمع كل الحركات الإصلاحية.

على أن النزاع الذى ظل قائمًا عدة قرون بين إيران وبيزنطة، كانت

نتيجته إضعافها وقت بدء الدعوة الإسلامية وعجزها عن وقف تيار العرب حين بدءوا فتوحهم العظيمة التى ما لبثت أن امتدت على إيران كلها.

الفتح الإسلامى

كانت قوة إيمان العرب بالعقيدة الإسلامية ورغبتهم فى نشر هذه الديانة واعتقادهم بالقضاء والقدر وعرفانهم خصوبة إيران ومصر والشام، نقول كان ذلك وغيره أكبر مشجّع لهم فى فتوحهم الواسعة، كما ساعدهم على ذلك ضعف الأمم العظيمة فى ذلك الحين: الفرس فى الشرق والرومان فى الشمال، فسقطت مملكة الفرس فى أيديهم وبقيت تابعة رأسًا للخلفاء يرسلون إليها حاكمًا من قبلهم حتى أوائل القرن الثالث (التاسع الميلادى)، وكانت سياسة بنى أمية العمل على إعلاء شأن العرب وصبغ الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بالصبغة العربية فلم يلعب الفرس فى عهدهم دورًا كبيرًا، ثم جاء العباسيون فانتقل السلطان إلى يد الفرس الذين قامت على أكتافهم الأسرة الجديدة.

وما لبث العصر الذهبى للدولة العباسية أن آذن بالغروب وبدأ الانحلال يدب فى أركان الدولة الإسلامية فأخذ حكام الأقاليم يطمعون فى الاستقلال بها. وأقدمهم فى إيران بنو ظاهر وبنو الصفار.

الدولتان: الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩هـ (٨٢٠-٨٧٢)

الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠هـ (٨٦٧-٩٠٣)

وتنسب الأولى إلى طاهر بن الحسين المشهور بذى اليمينين والذى كان قائدًا فى خدمة المأمون فكافأه بولاية خراسان، وبقى الحكم فى أسرته أكثر من خمسين عامًا حتى قضى عليها بنو الصفار، وأول ما كان من أمر هؤلاء أن

عميدهم يعقوب بن الليث الذى كان يصنع الصُّفْر (النحاس)، تولى حكم سجستان ومد سلطانه فى هراة وفارس، ثم هزم بنى طاهر واستولى على خراسان، وأراد فتح بغداد فهزمه الموفق أخو الخليفة، ومات يعقوب سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨) فخلفه أخوه، ولكن بنى سامان ما لبثوا أن أزالوا دولته.

الدولة السامانية ٢٦١-٣٨٩هـ (٧٨٤-٩٩٩)

كان سامان فارسيًا من أشراف بلخ دخل فى الإسلام فى عصر الدولة العباسية وظهر أحفاده الأربعة فى خدمة المأمون فولاهم بلاد ما وراء النهر، وحكم أحدهم فرغانه وسمرقند وكشغر، واستطاع ابنه من بعده أن يمد سلطانه من حدود الهند إلى قرب بغداد، واشتهرت بخارى فى عهد هذه الأسرة بفطاحل العلماء ونوابغ الباحثين. وعمل السامانيون على إحياء السنن الإيرانية وألحقوا نسبهم بالبطل الإيرانى بهرام چوبين، وبدأت فى عهدهم الحركة الوطنية للنهضة باللغة الفارسية؛ فظهر الرودكى عميد شعراء الفرس الأولين، ونظم الدقيقى منظومة كبيرة لنوح بن نصر يقص فيها حوادث إيران فى عهد أحد ملوكها الخرافيين، وقد أدخل الفردوسىّ هذه المنظومة فى الشاهنامة، والفردوسى نفسه بدأ حياته الأدبية فى خدمة السامانيين.

بنو بويه ٣٢٠-٤٤٨هـ (٩٣٢ - ١٠٥٦)

بينما كان السامانيون يحكمون شرقى إيرانُ ظهر فى غربها بنو بويه الذين يدعون أيضا أنهم من نسل الساسانيين، وكان بويه يرأس قبيلة عظيمة تسكن جنوبى بحر قزوين خضعت للسامانيين ثم لمردويج الزيارى الذى ولى على بن بويه الخراج، وما لبث ابن بويه أن اتخذ جنداً من الديلم وجعل يمد نفوذه جنوبًا بمساعدة إخوته حتى اضطر الخليفة أن يعترف بولايتهم على ما فتحوه، فاستقر بذلك سلطانهم فى جنوبى فارس ثم مدوه إلى بغداد نفسها

حين دخلوها سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥)، ومنح الخليفة أحدهم لقب أمير الأمراء فصارت لهم الكلمة العليا فى أمور الدولة حتى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥)، وكان أشهرهم عضد الدولة ٣٣٨-٣٧٢هـ الذى وسع نطاق التجارة وشمل برعايته العلوم والفنون.

الدولة الغزنوية ٣٥١-٥٨٢هـ (٩٦٢-١١٨٦)

بدأ العنصر التركى يلعب فى الإمبراطورية الإسلامية دوراً مهماً منذ أخذ الخلفاء العباسيون وملوك الأسر الفارسية يستخدمون أفراده فى بلاطهم ويتخذون منهم الجند المرتزقة، وكان سقوط بنى سامان فى نهاية القرن الرابع إيذانًا بانتقال السيادة فى بلاد العجم من الإيرانيين إلى أتراك أواسط آسيا، وظلت إيران حتى القرن العاشر يحكمها ملوك من الترك أو المغول؛ على أن هذه العناصر كانت تصطبغ فيها بالصبغة الإيرانية حتى ليمكن القول أن الأسر التى توالت على عرش إيران منذ القرن العاشر حتى القرن العشرين يمكن اعتبارها وطنية، سواء فى ذلك من كان منها تركى الأصل ومن كان منها عريقًا فى إيرانيته.

وأول الدول التركية التى حكمت إيران هى الأسرة الغزنوية، والأصل فى تكوينها أن مملوكًا تركيًا يسمى ألبتكين، ترقى فى خدمة عبد الملك السامانى، ثم اعتصم بعد وفاته بجبال أفغانستان متحديًا سلطان السامانيين، وما لبث أن أقام حكومة صغيرة فى غزنة بأفغانستان، ولكن المؤسس الحقيقى للأسرة الغزنوية هو صهره سُبُكتكين الذى اعترف به الخليفة وغزا البنجاب؛ وانتهز ابنه محمود من بعده فرصة انحلال الدولة السامانية فضم خراسان إلى أملاكه، وأخذ من البويهيين العراق العجمى وجرجان، وأحرزت جيوشه انتصارات عديدة فى البنجاب حيث بذر بذور الإسلام فى الهند، وامتدت

أملاكه إلى لاهور كما امتدت إلى سمرقند وأصبهان، وكان محمود بن سبكتكين من السنيين الغلاة فاضطهد المعتزلة وحرق مؤلفاتهم، ولكن الدولة بلغت فى عهده أوج عزها، وكان بلاطه مسحط شعراء الفرس فقدم له الفردوسى الشاهنامة أعظم الكتب الفارسية القصصية.

السلاجقة ٤٢٩-٧٠٠هـ (١٠٣٧-١٣٠٠)

عرفنا كيف ضعف سلطان العباسيين منذ القرن العاشر ولم يتعد نفوذهم بلاد العراق، وكيف كثرت الجنود المرتزقة من الأتراك فى خدمة الخليفة فاغتصبوا السلطان السياسى منه شيئًا فشيئًا وزاد نفوذ قومهم فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية.

والسلاجقة يعرفون بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم سلجوق الذى كان رئيس قبيلة تركمانية من بلاد ما وراء النهر، تمكنت من بسط نفوذها على خراسان، وزادت قوتها بعد سلجوق حتى استولى حفيده طغرلبك على الولايات الغربية للدولة الغزنوية، ثم سار إلى بغداد فدخلها سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥)، وقضى على دولة بنى بويه الشيعية فقلده الخليفة السلطة الدنيوية، وأخذ السلاجقة يمدون نفوذهم شيئًا فشيئًا حتى شمل إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام.

وفى عهد السلطان ألب أرسلان الذى خلف طغرلبك أوقع السلاجقة بالبيزنطيين هزيمة كبيرة فى ملاذ كرد سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١)، فوقعت أرمينية فى أيديهم وتمهد الطريق أمامهم للسيطرة على آسيا الصغرى وتهديد القسطنطينية.

وبلغت دولة السلاجقة أوج عزها فى عصر ملكشاه ووزيره نظام الملك

اللذين اهتما بشئون الرعية وعطفا على الشعراء والعلماء، وظهرت فى عهدهما المدارس والجامعات، ولما مات ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٣) ضعفت دولته وانقسمت بين أبنائه وأقاربه الذين كان يعينهم حكامًا ويطلق عليهم اسم الأتابكة.

هذا ولا ريب فى أن المدة التى حكمها السلاجقة منذ دخولهم بغداد إلى وفاة السلطان سنجر سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧) تعتبر من أزهى عصور الفن الفارسى؛ وممن أنجبهم العصر السلجوقى الإمام الغزالى وعمر الخيام.

دولة ملوك خوارزم ٤٧٠-٦١٧هـ (١٠٧٧-١٢٢٠)

أول أمرها أن أنوشتكين الذى كان عاملاً على خوارزم من قبل السلطان السلجوقى ملكشاه مات فخلفه ابنه وأراد أن يشق عصا الطاعة فطرده السلطان سنجر من خوارزم، ولكنه أفلح فى العودة إلى هذا الإقليم وأخذ هو وخلفاؤه يبسطون نفوذهم فى إيران، ثم انحازوا إلى المذهب الشيعى، وعقدوا العزم على القضاء على الخلافة العباسية لو لم يداهمهم جنكيزخان بجنوده المغول، وقد ظهر فى عصر هذه الأسرة كثير من أدباء الفرس وشعرائهم، كنظامى وعطار.

المغول ٦٥٦-٧٣٦هـ (١٢٥٨-١٣٣٦)

غزا المغول بأمر جنكيزخان بلاد ما وراء النهر وشرقى إيران سنة ٦١٨هـ (١٢٢١) ودمروا كثيرًا من المدن التى مروا بها، وكان من أكبر الكوارث فى تاريخ إيران.

ولكن الذى وطد قدم المغول فى بلاد الفرس إنما هو هولاكو الذى كان يحكمها فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر) من قبل أخيه

الأكبر، والذى استولى على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨) وقتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين، ثم أسس فى فارس أسرة حكمتها حتى سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٦) هى الأسرة الأيلخانية، وكان احتكاك التتار بالحضارة الإيرانية مهذبًا لهم؛ فكانت إدارتهم بعد هولاكو حازمة رشيدة تمتاز بالتسامح وما لبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وظلوا حريصين على الاتصال ببنى عمومتهم من التتار البوذيين فى الصين، ومن ثم كان عصر هذه الأسرة يمتاز فى إيران بالأثر الصينى فى الفن وفى الحياة الاجتماعية.

وقد كان نمو النظام الاقطاعى فى إيران سببًا فى القضاء على حكم خلفاء هولاكو، وظلت البلاد نحو خمسين عامًا بعد سقوط هذه الأسرة مقسمة إلى دويلات محلية صغيرة، مثل الدولة المظفرية فى فارس وكرمان ٧١٣-٧٩٥هـ (١٣١٣-١٣٩٣)، ودولة الكُرت فى هراة، ودولة الجلائريين فى العراق وغيرها من الدويلات التى بقيت حتى قضى عليها تيمورلنك فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر).

تيمورلنك وخلفاؤه ٧٧١-٩٠٦هـ (١٣٦٩-١٥٠٠)

ولد تيمورلنك فى بلاد ما وراء النهر سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥) من أسرة تركية عريقة فى المجد، ولما وطد نفوذه فى وطنه سار إلى إيران فهزم دويلاتها المختلفة ووحد السلطان فيها، ثم انطلق إلى روسيا وزحف إلى موسكو، وتحول بعد ذلك إلى الهند فتتابعت انتصاراته حتى احتل دهلى سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨)، وما لبث أن أوقع بالسلطان العثمانى بايزيد الهزيمة الكبرى عند أنقره سنة ٨٠٤هـ (١٤٠٢)، وقد كان تيمورلنك مخربًا فى فتوحه متناهيًا فى القسوة والهمجية، ولكنه إن كان قد خرب شيراز ودهلى ودمشق وبغداد فإنما

فعل ليجمّل سمرقند عاصمة ملكه حيث يوجد قبره الذى يعد من عجائب الفن الإسلامى.

وبعد وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٥) دب النزاع بين ورثته، واستطاع أخيراً شاه رُخ رابع أبنائه أن يرغم أقرباءه على الاعتراف به، فتربع على عرش إيران وبلاد ما وراء النهر، وجعل هراة عاصمته وجذب إليها طائفة كبيرة من الشعراء ورجال الفن فازدهرت الآداب والفنون فى عهده وفى عهد خلفائه.

الدولة الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ (١٥٠٢-١٧٣٦).

وتنتسب للشيخ صفى الدين أحمد أولياء أردبيل الذى استطاع حفيده الشاه إسماعيل أن يهزم التركمان فى غرب إيران، وأن يؤسس سنة ٩٠٧ (١٩٠٢) أسرة حكمت بلاد الفرس حتى سنة ١١٤٨ (١٧٣٦) وألحقت نسبها بالإمام على بن أبى طالب، وأصبح المذهب الشيعى منذ توليها الحكم المذهب الرسمى لبلاد إيران، ولم يكن العثمانيون وهم أبطال الجنس التركى والمذهب السنى ليتركوا الفرس تتحد كلمتهم ويزداد نفوذهم فبدأ نزاع طويل بين الشعبين، وسار السلطان سليم سنة ٩٢٠ (١٥١٤) بجيوشه قاصداً تبريز عاصمة الشاه إسماعيل، فانتصر على جيوش إيران نصراً مبيناً واستولى العثمانيون على الأملاك الغربية للإمبراطورية الصفوية، وزاد الطين بله أن قبائل التركمان كانت دائمة الغزو للحدود الشرقية، فقضى الشاه طهماسب (٩٣٠-٩٨٤هـ) مدة حكمه يكافح هذين الخطرين.

على أن العصر الذهبى للأسرة الصفوية إنما هو حكم الشاه عباس الأكبر (٩٨٥-١٠٣٨هـ)، فقد اعتلى العرش والخطر محدق بإيران، يهدد التركمان حدودها الشرقية الشمالية، ويستولى الأتراك على أذربيجان، فتمكن من

استعادة أملاكه المحتلة وتابع انتصاراته حتى طرد الترك من بغداد سنة ١٠٣٢ (١٦٢٣)، ثم عمل على مضايقتهم بإنشائه العلاقات الحسنة مع الدول الأوروبية وبإدخاله النظم الحديثة فى جيشه وإدارته؛ ومن أهم حوادث حكمه نقل العاصمة إلى أصفهان التى جملها وبنى فيها المساجد والقصور والطرق المعبدة، فزارها ووصف عظمتها الغربيون من الأجناس المختلفة.

وأما خلفاؤه فقد اتبعوا سياسته بالرغم من استبدادهم وخلاعتهم، وهم إن لم يستطيعوا الاحتفاظ ببغداد فاستعادتها الدولة العثمانية، فقد حافظوا على البلاد الإيرانية وقلدوا الشاه عباس فى تعضيد الفن ورجاله، وفى مواصلة العلاقات الطيبة بالدول الأوروبية.

ولكن عوامل الضعف أخذت تدب فى الدولة الصفوية حتى ثار الأفغان عليها فى عهد الشاه حسين (١٠٥-١١٣٥هـ)، وقد كانوا حتى ذلك التاريخ تابعين لها، ويمكن اعتبار هزيمتهم للشاه حسين سنة ١١٣٥هـ (١٧٢٢) واستيلائهم على أصفهان إيذانًا بسقوط الدولة الصفوية، ولو أن بعض أفرادها ظلوا يحكمون فى مازندران نحو عشر سنين.

نادرشاه

اقترن غزو الأفغان لفارس بفوضى شاملة هب على أثرها القائد الافشارى نادر قلى معلنًا عزمه على طردهم وتثبيت عرش الصفويين، ولكنه ما لبث أن خلع آخر ملوكهم واغتصب العرش لنفسه سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٦)، ثم سار على رأس جيوشه فأخضع أفغانستان وتوغل فى الهند حتى استولى على دهلى ونهب كنوزها، ولكن حكمه لم يدم طويلاً ووقعت البلاد بعد قتله سنة ١١٦٠هـ (١٧٤٧) فى فوضى كبيرة.

الزنديون ١١٦٣-١٢٠٩هـ (١٧٥٠-١٧٩٤)

انقسمت إيران فى عهد خلفاء نادر شاه إلى دويلات صغيرة، ولكن كريم خان الزندى ما لبث أن مد سلطانه على كل إيران إلا خراسان حيث بقى آخر خلفاء نادر شاه.

أسرة قاجار ١١٩٣-١٣٤٥هـ (١٧٧٩-١٩٢٦)

بعد وفاة كريم خان قام نزاع طويل بين خلفائه وبين محمد أغا من قبيلة قاجار التركية، واستطاع الأخير أن يؤسس أسرة جديدة وأن ينقل العاصمة إلى طهران، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة ناصر الدين شاه الذى خطا فى سبيل إدخال الحضارة الأوروبية فى إيران خطوات كبيرة، وفى عهد هذه الأسرة ظلت روسيا تهدد إيران وتغتصب أطرافها البعيدة، وبدأت الدول الأوروبية تقسمها إلى مناطق نفوذ، ثم كانت الحرب الكبرى وخلفت فى إيران ما خلفته فى غيرها من مشاكل وأزمات انتهت بظهور رجل قوى لتوحيد البلاد والنهضة بها.

رضا خان بهلوى ١٣٤٥هـ (١٩٢٦)

وهو جلالة شاه إيران الحالى أصله من فلاحى مازندران دخل الجيش ووصل فيه إلى مرتبة القيادة، ثم سار إلى العاصمة بعد قتال مع الروس سنة ١٩٢١م، فألف وزارة دخلها وزيراً للحربية، وضعف نفوذ الشاه أحمد فغادر البلاد وأقام فى باريس حتى عزل فى سنة ١٩٢٥م، واعتلى العرش جلالة شاه رضا خان مؤسساً لأسرة البهلوية، ونهضت البلاد فى عهده بفضل إدخال الأنظمة الحديثة وإرسال البعثات العلمية ودخول إيران فى عصبة الأمم.

***